

تفسير ابن كثير

يخبر تعالى عن جهل المشركين في عبادتهم غير الله من الأصنام التي لا تملك له ضرا ولا نفعا بلا دليل قادم إلى ذلك ولا حجة أدتهم إليه بل بمجرد الآراء والتشهي والأهواء فهم يوالونهم ويقا تلون في سبيلهم ويعادون الله ورسوله والمؤمنين فيهم ولهذا قال تعالى : { وكان الكافر على ربه ظهيرا } أي عونا في سبيل الشيطان على حزب الله وحزب الله هم الغالبون كما قال تعالى : { واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون * لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضون } أي آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لا تملك لهم نصرا وهؤلاء الجهلة للأصنام جند محضون يقا تلون عنهم ويذبون عن حوزتهم ولكن العاقبة والنصرة لله ورسوله وللمؤمنين في الدنيا والآخره .

قال مجاهد { وكان الكافر على ربه ظهيرا } قال : يظهر الشيطان على معصية الله ويعينه وقال سعيد بن جبیر : { وكان الكافر على ربه ظهيرا } يقول : عونا للشيطان على ربه بالعداوة والشرك وقال زيد بن أسلم { وكان الكافر على ربه ظهيرا } قال : مواليا ثم قال تعالى لرسوله صلوات الله وسلامه عليه { وما أرسلناك إلا مبشرا ونذيرا } أي بشيرا للمؤمنين ونذيرا للكافرين مبشرا بالجنة لمن أطاع الله ونذيرا بين يدي عذاب شديد لمن خالف أمر الله { قل ما أسألكم عليه من أجر } أي على هذا البلاغ وهذا الإنذار من أجرة أطلبها من أموالكم وإنما أفعل ذلك ابتغاء وجه الله تعالى { لمن شاء منكم أن يستقيم } { إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلا } أي طريقا ومسلكا ومنهجيا يقتدي فيها بما جئت به .

ثم قال تعالى : { وتوكل على الحي الذي لا يموت } أي في أمورك كلها كن متوكلا على الله الحي الذي لا يموت أبدا الذي هو { الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم } الدائم الباقي السرمدي الأبدى الحي القيوم ورب كل شيء ومليكه اجعله ذرك وملجأك وهو الذي يتوكل عليه ويفزع إليه فإنه كافيك وناصرك ومؤيدك ومظفرك كما قال تعالى : { يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس } .

وروى ابن أبي حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عبد الله بن محمد بن علي بن نفيل قال : قرأت على معقل يعني ابن عبيد الله عن عبد الله بن أبي حسين عن شهر بن حوشب قال : [لقي سلمان النبي صلى الله عليه وسلم في بعض فجاج المدينة فسجد له فقال لا تسجد لي يا سلمان واسجد للحي الذي لا يموت] وهذا مرسل حسن وقوله تعالى : { وسيح بحمده } أي اقرن بين حمده وتسبيحه ولهذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول [سبحانك اللهم ربنا وبحمدك] أي

أخلص له العبادة والتوكل كما قال تعالى : { رب المشرق والمغرب لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا } وقال تعالى : { فاعبده وتوكل عليه } وقال تعالى : { قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا } .

وقوله تعالى : { وكفى به بذنوب عباده خبيرا } أي بعلمه التام الذي لا يخفى عليه خافية ولا يعزب عنه مثقال ذرة وقوله تعالى : { الذي خلق السموات والأرض } الآية أي هو الحي الذي لا يموت وهو خالق كل شيء وربّه ومليكه الذي خلق بقدرته السموات السبع في ارتفاعها واتساعها والأرضين السبع في سفولها وكثافتها { في ستة أيام ثم استوى على العرش } أي يدبر الأمر ويقضي الحق وهو خير الفاصلين .

وقوله { ثم استوى على العرش الرحمن فاسأل به خبيرا } أي استعلم عنه من هو خير به عالم به فاتبعه واقتد به وقد علم أنه لا أحد أعلم بالله ولا أخبر به من عبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه سيد ولد آدم على الإطلاق في الدنيا والآخرة الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى فما قاله فهو الحق وما أخبر به فهو الصدق وهو الإمام المحكم الذي إذا تنازع الناس في شيء وجب رد نزاعهم إليه فما وافق أقواله وأفعاله فهو الحق وما خالفها فهو مردود على قائله وفاعله كائنا من كان قال الله تعالى : { فإن تنازعتم في شيء } الآية وقال تعالى : { وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله } وقال تعالى : { وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا } أي صدقا في الإخبار وعدلا في الأوامر والنواهي ولهذا قال تعالى : { فاسأل به خبيرا } .

قال مجاهد : في قوله { فاسأل به خبيرا } قال : ما أخبرتك من شيء فهو كما أخبرتك وكذا قال ابن جريج وقال شمر بن عطية في قوله { فاسأل به خبيرا } هذا القرآن خير به ثم قال تعالى منكرًا على المشركين الذين يسجدون لغير الله من الأصنام والأنداد { وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن } أي لا نعرف الرحمن وكانوا ينكرون أن يسمى الله باسمه الرحمن كما أنكروا ذلك يوم الحديبية حين [قال النبي صلى الله عليه وسلم للكاتبة : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقالوا : لا نعرف الرحمن ولا الرحيم ولكن اكتب كما كنت تكتب : باسمك اللهم] ولهذا أنزل الله تعالى : { قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى } أي هو الله وهو الرحمن وقال في هذه الآية { وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قالوا وما الرحمن } أي لا نعرفه ولا نقر به { أنسجد لما تأمرنا } أي لمجرد قولك { وزادهم نفورا } فأما المؤمنون فإنهم يعبدون الله الذي هو الرحمن الرحيم ويفردونه بالإلهية ويسجدون له وقد اتفق العلماء رحمهم الله على أن هذه السجدة التي في الفرقان مشروع السجود عندها لقارئها ومستمعها كما هو مقرر في موضعه والله سبحانه وتعالى أعلم